فاسبوك، تطرف وعنف في ثوب ديمقراطية سلمية؟

خلف شاشات هواتفنا الذكية، لطالما نرى أشباهنا، من ذوي أفكارنا ومعتقداتنا. فيتبادر الى أذهانا أن فاسبوك قد جعل الأمر هينا علينا فجمعنا ورفاق قطيعنا في فضاء عام نتبادل فيه أفكارنا العميقة الثابتة ايمانا منا أنها مقدسة لا يمكن المساس منها. وأن كل من تواجد خلف شاشاته في العالم الافتراضي هو بالضرورة حامل لقناعاتنا ورسول منا. اننا أصحاب الحقيقة المطلقة ولا وجود لمن يخالفها. لكننا لم نتساءل يوما عن القوى الخفية على الضفة الأخرى من شاشاتنا والتي تتحكم في اختياراتنا وتوجهها وتتحكم فيم نستهلكه من معطيات يومية على منصاتها.

ان وسائل التواصل الاجتماعي كانت ولازالت في تطور مستمر مرتبط بالأساس بحاجيات ومتطلبات الانسان. ولعلنا نرى ذلك في النسق المتسارع لتطور خدمات فاسبوك وامتيازاته والتحديثات المتواصلة التي تضفي خاصيات تسهل عملية استعماله كل مرة. ولكن في الكفة الأخرى نلاحظ أن كل تطور يصاحبه تحديث خاصية تنتهك معطياتنا الشخصية وتكدس كمية هائلة من بيانتنا الخصوصية. قد تستسهل نشر صورة جميلة لعائلتك مستعملا خاصية المكان والنشاط لتضفي أثرا خاصا عليها، كما قد تستسيغ إضافة أغنية الى "الستوري" التي تشاركها كل يوم. ولعلك تستأنس مشاركة اهتماماتك الرياضية والسياسية وحتى اليومي الرتيب الممل مع أصدقائك. تفاصيل قد تبدو بسيطة في ظاهرها، لا تعدو أن تكون مصدرا لبعض "اللايكات" التي تشفي غليل غرورك أو تعاليق استعراض لمهارات لغوية، ولكنها في باطنها مادة دسمة لخوارزميات الفاسبوك وذكائه الاصطناعي. أن كل ما ننشره أو حتى ما نفكر في نشره أحيانا يسجل آليا عند خوارزميات فاسبوك، يجمع منها البيانات اللازمة، عن شخصك، مكان سكنك، عائلتك، مالك وأعمالك، اهتماماتك السياسية والرياضية وحتى لونك المفضل وأين تقضي نهايات الأسبوع. ثم تعمل الخوارزميات على تطويع محتوى الفاسبوك وفقا لاهتماماتك وما تريد أنت شخصيا أن تراه، أشخاصا تشبهك، تفكر مثلك، تتبنى آراءك السياسية وايديولوجياتك ومبادئك. أماكن تستهويك، فريق كرة القدم المفضل لديك ومأكولاتك المفضلة. فتجد نفسك في فضاء آمن يشبهك وينمي فيك حس الانتماء الى فكر أو مجموعة أو قناعة معينة. وتسمى هاته الفضاءات غرف الصدى، أين "يفرض فايسبوك على المستخدمين التعرف فقط إلى مواقف الجماعة التي تشبههم،" حسب قول أستاذ الصحافة وعلوم الأخبار في الجامعة التونسية الصادق الحمامي.

قد يظهر توحيد الفاسبوك لصفوف المنادين برأي واحد جميلا، قد يظهر نزيها هدفه الوحيد أن يحشد الناس فيم ينفع الناس، وقد يظهر شريفا يسعى الى جعل حياة الناس أسهل وأجمل وأن يخلق فضاء مشتركا للتعارف. لكنه تعارف في قوقعة صغيرة محدودة أطرافها مختارة بدراسة وعناية دقيقة جدا. وهو توحيد بصفوف وتناس أو تغييب لأخرى. وهنا مربط الفرس، فالمجموعات الأخرى التي لا تشبهنا موجودة حقا. لكننا لا نراها، بل فاسبوك اجبرنا ألا نراها. هي موجودة وموحدة كوحدة مجموعاتنا بالضبط، تظن أنها شعب الله المختار هي الأخرى.

ان وجود الاختلافات والمجموعات طبيعي واختلاف الآراء ثراء. مشاركتها والنقاش فيها تنمية لها. لكن المفارقة العجيبة تكمن في أن فاسبوك، المنصة العالمية الهادفة لإبراز الاختلاف والتنوع أصبحت تتفنن في كل أشكال تغييبه وتعتيمه.

وهنا المشكل الحقيقي، أين يخيل الينا أننا وحدنا أصحاب الرأي والصوت المسموع ومالكوا الحقيقة المطلقة. وبالتالي فان احتمال وجود رأي مخالف شبه منعدم تماما. هذا ما سيساهم في تعزيز عملية الاستقطاب الأيديولوجي وسيخلق مجموعات متعصبة متطرفة في أغلب الأحيان، تتغذى داخل غرف الصدى أين ينمو تطرفها ليتحول الى عنف موجه ضد المجموعات الأخرى. وقد أقرت
TRT في هذا الشأن

أنه **"قبل أربعين سنة كان لدى معظم المجتمعات 60% من الجمهور ينتمون إلى التيارات الوسطية أو المعتدلة، مع وجود 20% فقط ينتمون إلى التيارات الطرفية سواء اليمينية أو اليسارية. اليوم نرى أن ما يقرب من 40% من الجمهور أصبح ينتمي أو يؤيد تيارات اليمن أو اليسار، مع وجود 20% فقط لا تزال تؤيد تيارات الوسط"**

بما معناه أن التيارات الوسطية المعتدلة منذ نشأة وسائل التواصل الاجتماعي تراجعت وذلك يعود أساسا الى تغذية الفكر المتطرف الذي لعبت وسائل التواصل الاجتماعي دورا كبيرا فيه.

بالإضافة الى العنف والتطرف الذي قد يقود الى العنف والإرهاب، فان الذكاء الاصطناعي لفاسبوك قد يساهم في تشكيل الرأي العام بتصور معين ورأي واحد غالبا ما يكون تيارا شعوبيا له قاعدة شعبية افتراضية كبيرة لأن التيارات الشعوبية تجد ضالتها في رواد الفاسبوك الذين يمثلون فريسة سهلة لها. حتى ان الأحزاب السياسية صارت تعتمد في حملاتها أساسا على مواقع التواصل الاجتماعي، بل أحيانا نرى أنها تستبدل بها وسائل الاعلام التقليدية. لأنها تعلم جيدا أنها قادرة على تشكيل قاعدة أكبر وتسييرها واستمالتها وكذلك التلاعب بالمعلومات لتشكل الوعي السياسي حسب مصلحتها. وأن وجود غرف الصدى سياستهم في حشد المناصرين المتشددين والمدافعين الشرسين عن الحزب. بالتالي تستمد مشروعية من وجودها الافتراضي الذي سيضمن لها شرعية وجودها الواقعي في الانتخابات. هذا ما حدث بالضبط في الانتخابات الرئاسية السابقة في تونس. وكذلك هي استراتيجية عديد الأحزاب السياسية التونسية كالحزب الدستوري الحر وائتلاف الكرامة وفقا للأستاذ الحمامي. ذلك يعني أن المشروعية السياسية لا تتعلق بما ان كان الرأي سديدا أو وفقا للبرامج الانتخابية أو الكفاءة. ولكنها مستمدة بالأساس من الوجود الافتراضي ومدى قدرة الحملات الالكترونية على الحشد وتشكيل غرف الصدى، والاهم من ذلك، دور الذكاء الاصطناعي في تأجيجها ونشرها. ومنه يصبح شرعيا بصندوق الاقتراع، الذي تتشكل أغلب أصواته افتراضيا. وفي هذا ضرب لأسس الديمقراطية ومبادئها وتهديد صارخ لها.

فتشكيل الرأي العام هنا هو تشكيل منحاز، يخضع لسلطة الأقوى افتراضيا، فيه توجيه وتضليل للشعب و هي أغلبية غالبا ما تكون غير حقيقية مضاعفة بفعل أثر غرف الصدى. وكذلك تهديد للرأي الآخر وتعتيم وتعنيف له، بل قد تتحول أحيانا الى حملات تشويه وهتك أعراض. وهذا ما يتعارض تماما مع قيم الديمقراطية وحرية التعبير "المكفولة ‘‘على فاسبوك.

لعل أول تساؤل قد يتبادر لأذهاننا الآن هو: لماذا قد تطوع خوارزميات الفاسبوك لغرض التفرقة بالذات، خاصة وان دوره الأساسي كما سبق أن ذكرنا هو الانفتاح على العالم بجل اختلافاته؟ لماذا قد يعمل مهندسو شركة ميتا على تطوير ذكاء اصطناعي هدفه بالأساس ترسيخ الفكر المتطرف وتدمير الديمقراطية وتشكيل رأي عام مشوه؟ للإجابة عن هذه الأسئلة يجب قبل كل شيء أن نعلم أن شركة ميتا المالكة لفاسبوك ومعظم مواقع التواصل الاجتماعي هي شركات ربحية بالأساس. هدفها الأول ليس إنسانيا أو اجتماعيا ولا خيريا، لكنه هدف ربحي يسعى الى تحقيق أرقام خيالية من الأموال. وان الورقة الرابحة لفاسبوك هي تفاعل مستعمليه. بالتالي يجب على أن يضمن وجود محتوى يزيد السلطة والتأثير على مستعمليه وبالتالي يزيد تواجدهم وتفاعلهم مع هذا المحتوى مما يزيد الربح والمال. وتمثل غرف الصدى المحتوى الأكثر استهلاكا من المستعملين. كما أنها تنتج مستعملين عنيفين كثيرا ما نرى كراهية وعنصرية في خطاباتهم التي تنتشر وتحضي بتفاعل كبير وبالتالي زيادة في أرباح الشركة. وعلى الرغم من أن مارك زوكربيرغ ينفي أي تطبيع لشركة ميتا مع العنف وخطاب الكراهية وأنها سرعان ما تحظر على الصفحات، لا أن المهندسة السابقة للشركة فرانسيس هوغن أقرت بعكس ذلك تماما وقالت بأن فاسبوك يقدم الربح المادي على سلامة مستخدميه. كذلك حسب دراسة لديفيد لور فان نموذج عمل فاسبوك يؤكد أنه من المربح أكثر أن يفرق بيننا أكثر من أن يجمع بيننا:

"Far more profitable to drive us apart."

أمام عظمة الدور الذي أصبح يلعبه فاسبوك في ترسيخ العنف والتطرف وتشويه الديمقراطية، وأمام سيرورته نحو مزيد من التقدم والتطور على الرغم من الانتقادات والمخاوف. وأمام حتمية التواجد داخل غرفه السوداء والتهديد الكامن داخلها، هل أصبح من الواجب على الدول والحكومات اتخاذ إجراءات رسمية للحد من هذا الأثر؟

ندى اللطيفي